شَرْحُ حَدِيثِ : (الدِّينُ النَّصِيحَةُ)

مُحَاضَرَةٌ مُفَرَّغَةٌ لِفَضِيلَةِ الشَّيْخِ الْعَلَّامَةِ رَبِيعِ بْنِ هَادِي عُمَيْرٍ الْمَدْخَلِيِّ

بِتَارِيخِ : ٣٠ – ٩ – ١٤٢٦

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِنَّ الْحَمْدَ لِلهِ نَحْمَدُهُ وَنَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ وَنَعُوذُ بِاللهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا كَثِيرًا إِلَى يَوْمِ الدِّينِ، أَمَّا بَعْدُ :

فَنَحْنُ إِنْ شَاءَ اللهُ اللَّيْلَةَ مَعَ حَدِيثٍ عَظِيمٍ؛ أَلَا وَهُوَ : مَا رَوَاهُ مُسْلِمٌ عَنْ تَمِيمٍ الدَّارِيِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ : " الدِّينُ النَّصِيحَةُ، ثَلَاثًا، فَقُلْنَا : لِمَنْ يَا رَسُولَ اللهِ ؟ قَالَ : لِلهِ، وَلِكِتَابِهِ، وَلِرَسُولِهِ ، وَلِأَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ، وَعَامَّتِهِمْ ".

هَذَا حَدِيثٌ عَظِيمٌ وَقَالُوا : إِنَّ الدِّينَ يَدُورُ عَلَيْهِ وَعَلَى ثَلَاثَةِ أَحَادِيثَ أُخَرَ وَبَعْضُهُمْ يَقُولُ : إِنَّهُ رُبُعُ الدِّينِ، وَالنَّوَوِيُّ يَقُولُ : مَدَارُ الْإِسْلَامِ عَلَيْهِ ، وَأَبُو دَاوُدَ يَقُولُ : مَدَارُ الْفِقْهِ عَلَى أَرْبَعَةِ أَحَادِيثَ : حَدِيثِ " إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ" ، وَحَدِيثِ " الْحَلَالُ بَيِّنٌ وَالْحَرَامُ بَيِّنٌ "؛ حَدِيثِ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ، وَهَذَا الْحَدِيثُ " الدِّينُ النَّصِيحَةُ " وَالرَّابِعُ حَدِيثُ " دَعْ مَا يَرِيبُكَ إِلَى مَا لَا يَرِيبُكَ ".

فَهُوَ مِنَ الْأَحَادِيثِ الْعَظِيمَةِ الَّتِي لَابُدَّ مِنَ الْعِنَايَةِ بِهَا، وَالتَّفَقُّهِ فِيهَا، وَفُسِّرَتْ " النَّصِيحَةُ " : بِأَنَّهَا كَلِمَةٌ جَامِعَةٌ تَتَضَمَّنُ إِرَادَةَ الْخَيْرِ لِلْمَنْصُوحِ لَهُ قَوْلًا وَفِعْلًا، وَهِيَ كَلِمَةٌ جَامِعَةٌ عَظِيمَةٌ فِعْلًا، وَهِيَ مَأْخُوذَةٌ مِنْ قَوْلِهِمْ : نَصَحْتُ الْعَسَلَ أَيْ خَلَّصْتُهُ مِنَ الشَّوَائِبِ فَالنَّصِيحَةُ مَعْنَاهَا تَخْلِيصُ وَتَلْخِيصُ مَا تَرَاهُ مِنَ

الْخَيْرِ لِلْمَنْصُوحِ لَهُ، لَيْسَ فِيهِ غِشٌّ؛ لِأَنَّ النُّصْحَ ضِدُّ الْغِشِّ، لَيْسَ فِيهِ غِشٌّ وَلَا تَلْبِيسٌ .

" فَالنَّصِيحَةُ لِلهِ "

هِيَ تَوْحِيدُهُ بِأَنْوَاعِ التَّوْحِيدِ ؛ تَوْحِيدِ الرُّبُوبِيَّةِ بِأَنْ نَعْتَقِدَ أَنَّهُ خَالِقُ هَذَا الْكَوْنِ وَرَبُّهُ وَمُنْشِؤُهُ، وَمُدَبِّرُهُ، وَأَنَّ لَهُ صِفَاتِ الْكَمَالِ وَأَنَّهُ ذُو الْعَظَمَةِ وَالْجَلَالِ، وَأَنَّ لَهُ الْأَسْمَاءَ الْحُسْنَى وَأَنَّهُ الْمَعْبُودُ الْحَقُّ الَّذِي لَا تَعِنُ الْوُجُوهُ إِلَّا لِجَلَالِهِ وَعَظَمَتِهِ ، وَلَا تَذِلُّ وَتَنْقَادُ وَتَخْضَعُ إِلَّا لِعَظَمَتِهِ وَطَاعَتِهِ وَطَاعَةِ رُسُلِهِ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وَالْإِيمَانُ بِكُتُبِهِ؛ لِأَنَّهُ حَكَمٌ ، عَدْلٌ، أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ، وَأَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ، وَأَنَّهُ عَدْلٌ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ، وَأَنَّ السَّمَاوَاتِ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وَأَنَّهُ يُمْسِكُهَا أَنْ تَزُولَ؛ ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّن بَعْدِهِ ۚ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾(فَاطِر:٤١)، وَهُوَ الَّذِي يُمْسِكُ الْعَرْشَ وَهُوَ أَضْعَافُ، أَضْعَافُ، أَضْعَافُ هَذَا الْكَوْنِ الَّذِي نُشَاهِدُهُ، وَيُمْسِكُ الْكُرْسِيَّ وَهُوَ أَضْعَافُ، أَضْعَافُ، أَضْعَافُ مَا نُشَاهِدُهُ مِنْ هَذَا الْكَوْنِ، وَيُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا، سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى .

يَنْبَغِي أَنْ نُدْرِكَ عَظَمَةَ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وَأَنَّهُ رَبُّ هَذَا الْكَوْنِ وَسَيِّدُهُ وَخَالِقُهُ وَمُدَبِّرُهُ، وَأَنَّهُ خَلَقَ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ لِعِبَادَتِهِ، فَيَجِبُ أَنْ يَخْضَعُوا لَهُ، وَأَنْ يَذِلُّوا لَهُ، وَأَنْ يَخْشَوْهُ وَأَنْ يَتَّقُوهُ، وَأَنْ يُصَدِّقُوا أَخْبَارَهُ، وَيَخَافُوا وَعْدَهُ وَوَعِيدَهُ، سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وَهَذَا بَعْضُ مَا يَسْتَحِقُّهُ – سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى – لَا كُلُّهُ .

” وَالنَّصِيحَةُ لِكِتَابِهِ ”

هَذَا الْقُرْآنُ الْعَظِيمُ، الْمُعْجِزَةُ الْخَالِدَةُ، الَّتِي عَجَزَ الْجِنُّ وَالْإِنْسُ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِهِ، أَوْ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِنْ مِثْلِهِ، أَوْ بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ، وَهَذَا الْعَجْزُ لِلثَّقَلَيْنِ؛ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَنْ يَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ مِنْ أَوْضَحِ الْأَدِلَّةِ عَلَى أَنَّهُ كَلَامُ اللهِ حَقًّا وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ- لَهُ مُعْجِزَاتٌ عَظِيمَةٌ أَعْظَمُهَا هَذَا الْقُرْآنُ الَّذِي حَوَى مِنَ الْعَقَائِدِ وَالتَّشْرِيعَاتِ وَالْفَصَاحَةِ وَالْبَلَاغَةِ وَأُمُورٍ أُخْرَى؛ لَوِ اجْتَمَعَ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ، أَوَّلُهُمْ وَآخِرُهُمْ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ لَمَا اسْتَطَاعُوا ذَلِكَ، وَقَدْ بُذِلَتْ مُحَاوَلَاتٌ كَثِيرَةٌ فَفُضِحَ الْمُحَاوِلُونَ !

أَمَّا الْعَرَبُ فِي عَهْدِ الرَّسُولِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَكَانُوا يَحْتَرِمُونَ أَنْفُسَهُمْ مَعَ أَنَّهُمْ يَطْعَنُونَ فِيهِ، لَكِنْ كَانُوا يُدْرِكُونَ

أَنَّهُمْ لَا يَسْتَطِيعُونَ أَنْ يَأْتُوا مِنْ مِثْلِهِ بِأَقْصَرِ سُورَةٍ مِثْلِ سُورَةِ الْكَوْثَرِ، أَوْ مِثْلِ سُورَةِ الْعَصْرِ، وَمَا ادَّعَوْا ذَلِكَ إِلَّا السَّفِيهُ مُسَيْلِمَةُ – قَبَّحَهُ اللهُ – ! فَفَضَحَهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ، وَحَاوَلَ بَعْضُ الزَّنَادِقَةِ أَنْ يَنْسِجَ عَلَى مِنْوَالِهِ فَعَجَزَ وَلَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَأْتِيَ بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ مِنْ أَقْصَرِ السُّوَرِ.

فَنُؤْمِنُ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَأَنَّهُ كَلَامُ اللهِ، وَنُعَظِّمُهُ، وَنُنَزِّهُهُ، وَنَحْفَظُهُ وَنَتَدَبَّرُهُ، وَنَعْمَلُ بِهِ، نُحِلُّ حَلَالَهُ، وَنُحَرِّمُ حَرَامَهُ، وَنُصَدِّقُ أَخْبَارَهُ، وَنَخَافُ مِمَّا فِيهِ مِنْ نُصُوصِ الْوَعِيدِ، نَرْغَبُ وَنَخَافُ أَشَدَّ الْخَوْفِ، وَنَطْمَعُ فِي مَا فِيهِ مِنْ نُصُوصٍ تُرَغِّبُنَا، فِيمَا عِنْدَ اللهِ وَفِي الدَّارِ الْآخِرَةِ مِنَ الْجَزَاءِ الْعَظِيمِ الَّذِي أَعَدَّهُ اللهُ لِمَنْ يَخَافُهُ وَيَخْشَاهُ وَيَتَّقِيهِ، وَنَتَفَقَّهُ فِي أَمْثَالِهِ الَّتِي لَا يَعْلَمُهَا وَلَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ، نَعْكُفُ عَلَيْهِ عِلْمًا وَعَمَلًا، فَهَذَا مِنَ النَّصِيحَةِ لِكِتَابِ اللهِ .

فَالنَّصِيحَةُ لِكِتَابِ اللهِ أَنْ نُعْنَى بِهِ هَذِهِ الْعِنَايَةَ، وَأَنْ نَعْرِفَ خَاصَّهُ وَعَامَّهُ، وَنَاسِخَهُ وَمَنْسُوخَهُ، وَمُحْكَمَهُ وَمُتَشَابِهَهُ، وَنُؤَلِّفَ بَيْنَ الْمُحْكَمِ وَالْمُتَشَابِهِ، وَنُعِيدَ الْمُتَشَابِهَ إِلَى الْمُحْكَمِ، وَهَكَذَا

تُعْنَى بِالْقُرْآنِ كَمَا عُنِيَ بِهِ رَسُولُ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – وَصَحَابَتُهُ الْكِرَامُ .

فَاللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَكْرَمَ مُحَمَّدًا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِهَذِهِ الرِّسَالَةِ وَبِهَذَا الْكِتَابِ، وَأَكْرَمَ الْأُمَّةَ بِهَذَا الْكِتَابِ : ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾(آلِ عِمْرَانَ : ١١٠) لِمَاذَا صَارُوا خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ؟! لِأَنَّهُمْ آمَنُوا بِهَذَا الْكِتَابِ وَعَمِلُوا بِهِ، وَمِنْ أَعْمَالِهِمْ أَنَّهُمْ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَلَا يَتَأَتَّى الْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيُ عَنِ الْمُنْكَرِ إِلَّا بَعْدَ فِقْهِ هَذَا الْكِتَابِ، وَفِقْهِ سُنَّةِ رَسُولِ اللهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ .

الَّذِي لَا يَتَفَقَّهُ لَا يَتَأَتَّى مِنْهُ الْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيُ عَنِ الْمُنْكَرِ؛ الَّذِي لَا يَعْرِفُ الْمَعْرُوفَ كَيْفَ يَأْمُرُ بِالْمَعْرُوفِ، وَالَّذِي لَا يَعْرِفُ الْمُنْكَرَ كَيْفَ يَنْهَى عَنِ الْمُنْكَرِ، إِلَّا فِي الْأُمُورِ الْوَاضِحَةِ الَّتِي يَشْتَرِكُ فِيهَا حَتَّى الْكُفَّارُ يَعْرِفُونَ أَنَّهَا مُنْكَرٌ، الْمُنْكَرَاتُ لَا تُعْرَفُ أَنَّهَا مُنْكَرَةٌ إِلَّا مِنْ خِلَالِ كِتَابِ اللهِ وَمِنْ سُنَّةِ الرَّسُولِ، وَمِنْهَا الْعَقَائِدُ الضَّالَّةُ وَالْأَفْكَارُ الْمُنْحَرِفَةُ وَأَقْوَالُ الْمَلَاحِدَةِ وَالزَّنَادِقَةِ، وَأَقْوَالُ الرَّوَافِضِ وَأَهْلِ الْبَاطِلِ، هَذِهِ لَا يَعْرِفُهَا وَلَا يَنْهَى عَنْهَا

إِلَّا مَنْ يَفْهَمُ كِتَابَ اللهِ وَسُنَّةَ رَسُولِ اللهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فَهَذَا بَعْضُ مَا يَسْتَحِقُّ مِنَّا الْقُرْآنُ مِنَ النَّصِيحَةِ أَنْ نُعْنَى بِهِ دِرَاسَةً وَتَفَقُّهًا وَتَدَبُّرًا، وَتَأَمُّلًا، وَتَفَقُّهًا، وَعَمَلًا وَتَطْبِيقًا، وَقَدْ قَصَّرَ الْمُسْلِمُونَ فِي الْعِنَايَةِ بِهَذَا الْكِتَابِ، فَأْتُوا مِنْ هَذَا التَّقْصِيرِ؛ إِمَّا فِي الِاسْتِسْلَامِ لَهُ، وَالِانْقِيَادِ لَهُ وَإِمَّا مِنْ سُوءِ الْفَهْمِ لِمَا يُرِيدُهُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِي هَذَا الْقُرْآنِ وَمَا يُخْبِرُ بِهِ مِنَ الْأَخْبَارِ مَا يُرِيدُهُ مِنَّا مِنَ الْأَوَامِرِ وَالنَّوَاهِي، وَمَا يُرِيدُ مِنَّا تَصْدِيقَهُ حَقَّ التَّصْدِيقِ كَالْإِيمَانِ بِالْأَخْبَارِ الَّتِي تَتَضَمَّنُ الْإِيمَانَ بِأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ، لَقَدْ حَصَلَ فِيهَا التَّعْطِيلُ وَالتَّشْبِيهُ وَالتَّمْثِيلُ، حَصَلَ فِيهَا انْحِرَافَاتٌ، وَالنُّصُوصُ الَّتِي تَضَمَّنَتْ وَالْإِيمَانَ بِالْجَنَّةِ وَالنَّارِ وَالصِّرَاطِ وَإِلَى آخِرِ الْأَخْبَارِ الَّتِي تَحَدَّثَ عَنْهَا ؛ حَصَلَ فِيهَا إِخْلَالٌ مِنَ الطَّوَائِفِ الْمُنْتَسِبَةِ لِلْإِسْلَامِ؛ هُنَاكَ جَوَانِبُ يَشْتَرِكُونَ فِيهَا وَجَوَانِبُ يَقَعُ فِيهَا تَفَرُّدَاتٌ، فَلَابُدَّ مِنَ التَّفَقُّهِ فِي كِتَابِ اللهِ، وَالْقِيَامِ بِمَا يَتَطَلَّبُهُ مِنَّا هَذَا الْكِتَابُ الْعَزِيزُ الَّذِي لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ ، تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ .

" وَالنَّصِيحَةُ لِرَسُولِ اللهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ "

الْإِيمَانُ بِهِ وَتَعْظِيمُهُ، وَاحْتِرَامُهُ وَإِجْلَالُهُ وَتَوْقِيرُهُ – عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- وَتَوْقِيرُ مَنْ لَهُ صِلَةٌ بِهِ، وَاتِّبَعَهُ، وَدَانَ بِدِينِهِ مِنَ الصَّحَابَةِ الْكِرَامِ، وَأَهْلِ بَيْتِهِ وَأَقَارِبِهِ وَأَرْحَامِهِ، وَأَصْهَارِهِ – عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- هَذَا مِنَ النَّصِيحَةِ لِرَسُولِ اللهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ .

وَالْإِيمَانُ بِسُنَّتِهِ، وَمَعْرِفَةُ مَنْزِلَةِ هَذِهِ السُّنَّةِ وَأَنَّهَا بَيَانٌ لِلْقُرْآنِ؛ تُخَصِّصُ عَامَّهُ وَتُقَيِّدُ مُطْلَقَهُ، وَتُبَيِّنُ مَا فِيهِ مِنْ إِجْمَالَاتٍ – إِنْ كَانَ هُنَاكَ إِجْمَالٌ – وَقَدْ كَلَّفَ اللهُ رَسُولَهُ بِالْبَيَانِ – عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ – فَقَامَ بِهِ عَلَى أَكْمَلِ الْوُجُوهِ : ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ (النَّحْل : ٤٤) فَقَامَ بِهَذَا الْبَيَانِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بِأَقْوَالِهِ، وَأَفْعَالِهِ، وَتَقْرِيرَاتِهِ، حَتَّى تَرَكَنَا عَلَى الْبَيْضَاءِ؛ لَيْلُهَا كَنَهَارِهَا لَا يَزِيغُ عَنْهَا إِلَّا هَالِكٌ، عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فَيَجِبُ الْعِنَايَةُ بِسُنَّتِهِ؛ حِفْظًا ، وَتَفَقُّهًا، وَرَبْطٌ مُحْكَمٌ بَيْنَهَا وَبَيْنَ كِتَابِ اللهِ، فَإِنَّهُمَا لَا يَفْتَرِقَانِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ .

وَالسُّنَّةُ كُلُّهَا أَوْ جُلُّهَا وَحْيٌ؛ قَالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِي مَدْحِ رَسُولِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ : ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ (النَّجْم : ٣ – ٤)، وَقَدْ كَانَ عَبْدُ اللهِ بْنُ عَمْرِو بْنِ

الْعَاصِ يَكْتُبُ عَنِ النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ كُلَّ مَا يَسْمَعُهُ فَنَهَتْهُ قُرَيْشٌ وَقَالُوا: أَتَكْتُبُ كُلَّ شَيْءٍ تَسْمَعُهُ وَرَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَشَرٌ يَتَكَلَّمُ فِي الْغَضَبِ وَالرِّضَا ؟! قَالَ: فَأَمْسَكْتُ عَنِ الْكِتَابِ، فَذَكَرْتُ ذَلِكَ لِرَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَوْمَأَ بِأُصْبُعِهِ إِلَى فِيهِ فَقَالَ: (أُكْتُبْ فَوَ الَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ مَا يَخْرُجُ مِنْهُ إِلَّا حَقٌّ)( ) .

وَالْآيَةُ كَمَا سَمِعْتُمْ : ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ فَالْحَدِيثُ يُطَابِقُ الْآيَةَ.

السُّنَّةُ إِنْ لَمْ تَكُنْ كُلُّهَا وَحْيٌ فَجُلُّهَا وَحْيٌ يُوحَى، وَمِنْهَا الْأَحَادِيثُ الْقُدْسِيَّةُ؛ الرَّسُولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لَا يُحَلِّلُ وَلَا يُحَرِّمُ ابْتِدَاءً مِنْ نَفْسِهِ : (إِنِّي لَسْتُ أُحَرِّمُ حَلَالًا وَلَا أُحِلُّ حَرَامًا) ( ) إِنَّمَا هُوَ مُبَلِّغٌ :﴿إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ﴾(فَاطِر:٢٣)، ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ﴾ (الشُّورَى : ٤٨)، فَالسُّنَّةُ مِمَّا يُبَلِّغُهُ؛ يُبَلِّغُ الْقُرْآنَ وَيُبَلِّغُ السُّنَّةَ- عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ – وَبَيَّنَ لَنَا الصَّلَاةَ وَالزَّكَاةَ، وَالصِّيَامَ وَالْحَجَّ، تُذْكَرُ – فِي الْقُرْآنِ – عَلَى سَبِيلِ الْإِجْمَالِ وَرَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُبَيِّنُ مَاذَا يُرِيدُهُ اللهُ مِنَّا مِنْ هَذِهِ الصَّلَاةِ الَّتِي يَأْمُرُنَا بِإِقَامَتِهَا، وَيُكْثِرُ مِنَ الْأَمْرِ بِإِقَامَتِهَا، بَيَّنَ

لَنَا رَسُولُ اللهِ غَايَةَ الْبَيَانِ، فَلَوْلَا بَيَانُهُ لَمَا عَرَفْنَا كَيْفَ نُصَلِّي، وَلَا عَرَفْنَا أَوْقَاتَ الصَّلَاةِ وَلَا أَعْدَادَهَا، وَلَا مَا تَضَمَّنَتْهَا مِنْ رُكُوعٍ وَسُجُودٍ وَأَذْكَارٍ، وَلَا، وَلَا، إِلَى آخِرِهِ، بَيَّنَ لَنَا ذَلِكَ رَسُولُ اللهِ – عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ – فِي سُنَّتِهِ الْمُطَهَّرَةِ غَايَةَ الْبَيَانِ بِقَوْلِهِ وَفِعْلِهِ وَتَقْرِيرِهِ – عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ – .

وَبَيَّنَ لَنَا تَفَاصِيلَ الزَّكَاةِ؛ فِي الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْأَنْعَامِ، وَفِي الزُّرُوعِ وَفِي الثِّمَارِ، وَغَيْرِهَا؛ بَيَّنَ لَنَا مَقَادِيرَهَا وَأَنْصِبَتَهَا وَ .. وَ .. إِلَى آخِرِهِ – عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ – .

وَبَيَّنَ لَنَا الصِّيَامَ؛ مَا يُصَحِّحُهُ وَمَا يُفْسِدُهُ وَ.. وَ.. إِلَى آخِرِهِ .

وَبَيَّنَ لَنَا كَثِيرًا مِنَ الْأُمُورِ؛ تَفَاصِيلَ الْجِهَادِ، تَفَاصِيلَ الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ، كُلُّ هَذَا يَجِدُهُ مَنْ يَطْلُبُهُ مِنْ سُنَّةِ رَسُولِ اللهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فَيَنْبَغِي أَنْ نَعْرِفَهَا، وَأَنْ نَفْهَمَهَا وَأَنْ نَتَفَقَّهَ فِيهَا، وَأَنْ نَسْتَفِيدَ مِنْ فَهْمِ سَلَفِنَا الصَّالِحِ لِهَذِهِ السُّنَّةِ وَمِنَ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ، نَسْتَعِينُ بِهَا عَلَى فَهْمِ مُرَادِ الْهُوِ وَمُرَادِ رَسُولِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ لِأَنَّنَا نَفْهَمُ بِفِقْهِهِمْ وَبِطَرَائِقِهِمْ فِي الِاسْتِدْلَالِ وَالْفَهْمِ وَالتَّعَامُلِ مَعَ النُّصُوصِ، مِنَ الْجَمْعِ بَيْنَ مُخْتَلِفِ الْأَحَادِيثِ، وَمَعْرِفَةِ النَّاسِخِ مِنَ الْمَنْسُوخِ، وَالْخَاصِّ

وَالْعَامِّ وَكَيْفَ نُوَفِّقُ بَيْنَهُمَا، وَالْمُطْلَقِ وَالْمُقَيَّدِ وَكَيْفَ نُوَفِّقُ بَيْنَهُمَا، وَهَكَذَا؛ هَذَا فِقْهُ سَلَفِنَا الصَّالِحِ وَهَذِهِ قَوَاعِدُهُمْ وَتَأْصِيلَاتُهُمْ مُسْتَمَدَّةٌ مِنْ كِتَابِ اللهِ وَمِنْ سُنَّةِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَنَسْتَفِيدُ مِنْ تَطْبِيقَاتِهِمْ لِهَذِهِ الْقَوَاعِدِ، فَإِنَّهُ يَجِبُ عَلَيْنَا أَنْ نَتَّبِعَ سَبِيلَ الْمُؤْمِنِينَ فِي هَذَا التَّفَقُّهِ وَفِي هَذَا التَّدَيُّنِ وَفِي هَذَا الِالْتِزَامِ، وَفِي الِاعْتِقَادِ، وَفِي التَّطْبِيقِ، وَمَنْ أَرَادَ أَنْ يَسْتَقِلَّ عَنْهُمْ فَسَيَأْتِي بِدِينٍ جَدِيدٍ ! فَنَحْنُ نَفْهَمُ كِتَابَ اللهِ فِي ضَوْءِ سُنَّةِ رَسُولِ اللهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وَفِي ضَوْءِ فَهْمِ سَلَفِنَا الصَّالِحِ، وَتَأْصِيلَاتِهِمْ وَتَطْبِيقَاتِهِمْ – رِضْوَانُ اللهِ عَلَيْهِمْ – فَإِنَّ بَعْضَ النَّاسِ قَدْ يَشِذُّ وَيَأْتِي بِفِقْهٍ جَدِيدٍ وَفُهُومٍ جَدِيدَةٍ ! وَهَذَا عَيْنُ الضَّلَالِ؛ فَإِنَّ هَذَا طَرِيقُ الْخَوَارِجِ؛ اسْتَهَانُوا بِفِقْهِ الصَّحَابَةِ وَفَهْمِهِمْ لِدِينِ اللهِ وَصَارُوا يَفْهَمُونَ الدِّينَ بِأَهْوَائِهِمْ ! وَجَاءَتْ فِرَقٌ، وَفِرَقٌ وَمِنْهَا الْقَادِيَانِيَّةُ؛ يَفْهَمُونَ الْقُرْآنَ فِي ضَوْءِ لُغَةِ الْعَرَبِ -كَمَا يَزْعُمُونَ- قَاطِعِينَ النَّظَرَ عَنْ سُنَّةِ رَسُولِ اللهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وَعَنْ فِقْهِ السَّلَفِ ، فَخَرَجُوا مِنَ الدِّينِ نِهَائِيًّا وَكَفَرُوا بِاللهِ وَصَارُوا مِنَ الْفِرَقِ الْكَافِرَةِ الَّتِي أَجْمَعَتِ الْأُمَّةُ عَلَى كُفْرِهَا ! لِأَنَّهُمْ قَالُوا : لَا نَحْتَاجُ

إِلَى سُنَّةٍ وَلَا إِلَى غَيْرِهَا، لُغَةُ الْعَرَبِ تَكْفِينَا ! وَلَا يَرْجِعُونَ إِلَى السُّنَّةِ وَلَا إِلَى السَّلَفِ فَوَقَعُوا فِي هَذَا الْإِلْحَادِ وَالزَّنْدَقَةِ وَالْكُفْرِ !!

فَإِذَا قُلْنَا كِتَابُ اللهِ وَسُنَّةُ رَسُولِ اللهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لَابُدَّ مِنْهُمَا، لَكِنْ لَابُدَّ مِنَ التَّعْوِيلِ عَلَى أُصُولِ السَّلَفِ وَفِقْهِهِمْ وَتَطْبِيقِهِمْ، فَنَحْنُ نَفْهَمُ كِتَابَ اللهِ وَسُنَّةَ الرَّسُولِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَلَا نَكُونُ نَاصِحِينَ لِكِتَابِ اللهِ وَسُنَّةِ الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ إِلَّا إِذَا سَلَكْنَا طَرِيقَةَ السَّلَفِ؛ الَّذِينَ تَوَعَّدَ اللهُ مَنْ يَسْلُكُ غَيْرَ مَنْهَجِهِمْ وَطَرِيقِهِمْ بِجَهَنَّمَ قَالَ تَعَالَى : ﴿وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ ۖ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ (النِّسَاء :١١٥)، فَنَحْنُ نَنْظُرُ كَيْفَ فَهِمُوا الْقُرْآنَ، كَيْفَ اعْتَقَدُوا الْعَقَائِدَ، كَيْفَ تَفَقَّهُوا، كَيْفَ يَسْتَنْبِطُونَ، مَا هِيَ طُرُقُهُمْ فِي الِاسْتِدْلَالِ، وَالِاسْتِنْبَاطِ وَالْفِقْهِ، وَنَدْرُسُ سِيَرَهُمْ وَنَعْرِفُ أَخْلَاقَهُمْ، وَمَنْهَجَهُمْ وَعَقَائِدَهُمْ، وَهِيَ مُدَوَّنَةٌ وَالْحَمْدُ لِلهِ، وَالسُّنَّةُ مُدَوَّنَةٌ، وَفِقْهُهُمْ مُدَوَّنٌ .

الْعَالِمُ الْمُجْتَهِدُ إِذَا وَجَدَ اخْتِلَافًا يَجْتَهِدُ وَيَبْذُلُ وُسْعَهُ فِي التَّرْجِيحِ : ﴿فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ (

النِّسَاء : ٥٩)؛ يَعْنِي بَابُ الِاجْتِهَادِ مَفْتُوحٌ، لَكِنْ فِي إِطَارٍ مُعَيَّنٍ وَالْتِزَامٍ بِمَنْهَجِ السَّلَفِ، الْعَامِّ وَالْأَصِيلِ .

وَمَا يَنْشَأُ مِنْ خِلَافَاتٍ فِي الْفُرُوعِ يَسْلُكُ الْمُجْتَهِدُ فِيهِ الْمَسْلَكَ الَّذِي دَلَّنَا عَلَيْهِ رَبُّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَى : ﴿فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾(النِّسَاء : ٥٩)؛ فَلَيْسَ مِنْ مَنْهَجِ السَّلَفِ أَيْضًا أَنْ تَتَّخِذَ مَذْهَبًا مُعَيَّنًا وَتَجْمُدَ عَلَيْهِ وَتَرُدَّ كُلَّ مَا سِوَاهُ، فَهَذَا الْمَنْهَجُ قَدْ يُؤَدِّي إِلَى الْكُفْرِ! إِذَا كُنْتَ تَرُدُّ النُّصُوصَ مِنْ أَجْلِ فَهْمِ فَقِيهٍ مِنَ الْفُقَهَاءِ، وَتَرُدُّ النُّصُوصَ مِنْ كِتَابِ اللهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ مِنْ أَجْلِهِ، هَذَا قَدْ يُؤَدِّي إِلَى الْكُفْرِ، وَالطَّرِيقُ الصَّحِيحُ أَنْ نَعْتَبِرَ الْأَئِمَّةَ كُلَّهُمْ أَئِمَّتَنَا، وَأَنَّهُمْ أَئِمَّةُ هُدًى، وَأَنَّ اجْتِهَادَاتِهِمُ الَّتِي قَدْ يُخْطِئُونَ فِيهَا مَعْذُورُونَ وَمَغْفُورٌ لَهُمْ فِيهَا : (إِذَا اجْتَهَدَ الْحَاكِمُ فَأَصَابَ فَلَهُ أَجْرَانِ وَإِذَا اجْتَهَدَ فَأَخْطَأَ فَلَهُ أَجْرٌ وَاحِدٌ)( )؛ وَيُعْذَرُ فِي هَذَا الْخَطَأِ وَيُؤْجَرُ .

وَأَمَّا الَّذِي يُقَلِّدُ وَاحِدًا مِنْهُمْ بِهَوَاهُ وَيَعْرِفُ أَنَّ إِمَامَهُ أَخْطَأَ فِي الْقَضِيَّةِ الْمُعَيَّنَةِ أَوْ قَضَايَا مُعَيَّنَةٍ، ثُمَّ يَتَمَرَّدُ عَلَى نُصُوصِ الْكِتَابِ

وَالسُّنَّةِ، تَعَصُّبًا لِإِمَامِهِ؛ هَذَا التَّعَصُّبُ قَدْ يُؤَدِّي إِلَى الْكُفْرِ وَالْعِيَاذُ بِاللهِ !!

فَعَلَى الْمُسْلِمِ أَنْ يَجْتَهِدَ فِي مَعْرِفَةِ الْحَقِّ، وَإِذَا اخْتَلَفَتْ عَلَيْهِ أَقْوَالُ الْعُلَمَاءِ، يَسْتَعِينُ بِأَقْوَالِهِمْ أَيْضًا فِي تَرْجِيحِ الْحَقِّ وَتَمْيِيزِهِ وَتَقْدِيرِهِ؛ نَعْذِرُ الْمُخْطِئَ فِيمَا أَخْطَأَ، وَنَعْتَقِدُ إِمَامَتَهُ وَصِدْقَهُ وَإِخْلَاصَهُ، وَلَكِنْ لَا يَجُوزُ لَنَا أَنْ نَتَشَبَّثَ بِخَطَئِهِ فَإِنَّ اللهَ لَمْ يَأْمُرْ بِهَذَا، وَلَا رَسُولُهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وَلَا أَئِمَّةُ الْإِسْلَامِ؛ أَئِمَّةُ الْإِسْلَامِ – أَنْفُسُهُمْ – لَا يَرْضَوْنَ هَذَا، وَقَدْ حَارَبُوا التَّقْلِيدَ أَشَدَّ الْحَرْبِ؛ التَّقْلِيدَ الْمُرْتَبِطَ بِالْهَوَى وَالْقَائِمَ عَلَى الْهَوَى، وَإِلَّا قَدْ يَحْتَاجُ الْإِنْسَانُ أَحْيَانًا إِلَى التَّقْلِيدِ؛ حَتَّى الْعَالِمُ الْكَبِيرُ قَدْ يَحْتَاجُ أَحْيَانًا إِلَى التَّقْلِيدِ فِيمَا اسْتَعْصَى عَلَيْهِ فَهْمُهُ، أَوْ لَمْ يَجِدْ فِيهِ نَصًّا وَوَجَدَ فِيهِ كَلَامًا لِلصَّحَابَةِ – مَثَلًا – أَوْ لِأَئِمَّةِ الْإِسْلَامِ، أَوْ وَجَدَ إِجْمَاعًا، فَقَدْ يَحْتَاجُ حَتَّى الْإِمَامُ الْفَذُّ وَالْجِهْبِذُ فِي بَعْضِ الْأُمُورِ إِلَى التَّقْلِيدِ، وَلَكِنَّ الْغَالِبَ نَفْقَهُهُ مِنْ كِتَابِ اللهِ وَمِنْ سُنَّةِ رَسُولِ اللهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ الْجَلِيَّةِ الْمُبَيِّنَةِ لِلْقُرْآنِ.

الشَّاهِدُ : إِنَّ هَذَا هُوَ الطَّرِيقُ الصَّحِيحُ فِي الْعَمَلِ بِكِتَابِ اللهِ وَبِسُنَّةِ رَسُولِ اللهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ؛ أَنْ نُؤْمِنَ بِسُنَّةِ رَسُولِ اللهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وَنُدْرِكَ كَيْفَ بَيَّنَ رَسُولُ اللهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ كَثِيرًا مِنْ إِجْمَالَاتِ النُّصُوصِ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، نُدْرِكُ كَيْفَ بَيَّنَ مَقَاصِدَهَا وَمَرَامِيَهَا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وَنُدْرِكُ كَيْفَ فَقِهَ الصَّحَابَةُ وَتَلَقَّوْا هَذَا الْفِقْهَ مِنْ سُنَّتِهِ، وَمِنْ سِيرَتِهِ وَمِنْ تَطْبِيقِهِ، وَنَقَلُوا هَذَا إِلَى التَّابِعِينَ بِإِحْسَانٍ وَهَكَذَا دَوَالَيْكَ إِلَى أَنْ وَصَلَ إِلَيْنَا هَذَا الدِّينُ كَأَنَّمَا نَتَلَقَّاهُ مِنْ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، مِنَ الْمَصَادِرِ الْأَصِيلَةِ، لَا مِنْ كُلِّ الْمَصَادِرِ الَّتِي تُنْسَبُ إِلَى الْإِسْلَامِ؛ هُنَاكَ مَصَادِرُ نَقِيَّةٌ صَافِيَةٌ الَّتِي عُنِيَ بِهَا أَئِمَّةُ السُّنَّةِ وَدَانُوا بِهَا، وَهُنَاكَ مَصَادِرُ فِيهَا الْغَثُّ وَالسَّمِينُ، وَفِيهَا الْبَاطِلُ وَالضَّلَالُ، وَفِيهَا، وَفِيهَا، مِثْلُ مَصَادِرِ أَهْلِ الضَّلَالِ؛ فِي عَقَائِدِهِمْ وَحَتَّى فِي فِقْهِ كَثِيرٍ مِنْهُمْ، فَإِنَّهُمْ جَاءُوا إِلَى فِقْهِ الْأَئِمَّةِ الْأَرْبَعَةِ مَثَلًا وَأَدْخَلَ فِيهِ الصُّوفِيَّةُ؛ أَدْخَلُوا فِيهِ تَصَوُّفَهُمْ، وَالْمُرْجِئَةُ، وَالْمُعْتَزِلَةُ انْدَسُّوا فِي الْمَذَاهِبِ الْأَرْبَعَةِ؛ دَسُّوا شَيْئًا فِي فِقْهِ الْأَئِمَّةِ !! كَمَا نَصَّ عَلَى ذَلِكَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَّةَ بَعْدَ تَتَبُّعٍ وَاسْتِقْرَاءٍ .

فَنَحْنُ نَأْخُذُ بِالْفِقْهِ النَّقِيِّ الَّذِي خَلَّفَهُ لَنَا السَّلَفُ مِنْ مَصَادِرِهِ الْأَصْلِيَّةِ .

وَمِنْ مَصَادِرِ الْفِقْهِ الطَّيِّبَةِ الَّتِي يُسْتَعَانُ بِهَا : مِثْلُ كِتَابِ (الْمُغْنِي) لِلْإِمَامِ ابْنِ قُدَامَةَ رَحِمَهُ اللهُ هَذَا فِي الْفِقْهِيَّاتِ، وَ(الْمَجْمُوعِ) لِلنَّوَوِيِّ رَحِمَهُ اللهُ، وَ(الْمُحَلَّى) لِابْنِ حَزْمٍ، مَعَ التَّنْبِيهِ إِلَى التَّحَفُّظِ مِنْ أَخْطَائِهِمْ؛ قَدْ يَحْصُلُ عِنْدَهُمْ أَخْطَاءٌ، لَكِنْ هِيَ مِنْ أَحْسَنِ الْمَصَادِرِ الَّتِي يَنْبَغِي أَنْ يَرْجِعَ إِلَيْهَا الْمُسْلِمُ، وَكَذَا مَا دَوَّنَهُ ابْنُ تَيْمِيَّةَ وَابْنُ الْقَيِّمِ، وَفِقْهُ أَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ رَحِمَهُ اللهُ، وَفِقْهُ الشَّافِعِيِّ فِي كِتَابِهِ (الْأُمِّ)؛ فَالَّذِي يَمُدُّ اللهُ فِي عُمُرِهِ وَيُبَارِكُ فِي وَقْتِهِ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَرْجِعَ إِلَى هَذِهِ الْمَصَادِرِ، وَيُمَيِّزَ فِيهَا صَحِيحَهَا مِنْ سَقِيمِهَا، وَالْغَالِبُ عَلَيْهَا – إِنْ شَاءَ اللهُ – الصِّحَّةُ، وَلَا يَسْلَمُ أَحَدٌ مِنَ الْخَطَأِ ، حَتَّى دَوَاوِينُ السُّنَّةِ مِثْلُ الْأُمَّهَاتِ الْأَرْبَعِ الَّتِي هِيَ بَعْدَ الصَّحِيحَيْنِ، وَمُسْنَدِ أَحْمَدَ وَغَيْرِهَا؛ يُوجَدُ فِيهَا الصَّحِيحُ وَالضَّعِيفُ يُعْرَفُ ذَلِكَ مِنْ قَوَاعِدِ السَّلَفِ وَتَطْبِيقَاتِهِمْ فِعْلًا، وَتَمْيِيزًا بَيْنَ الصَّحِيحِ وَالسَّقِيمِ، وَالْمُجْتَهِدُ حَتَّى فِي هَذَا الْمَجَالِ لَا يُقَلِّدُ؛ يَعْنِي لَا يَأْتِي إِلَى سُنَنِ أَبِي دَاوُدَ وَيَأْخُذُ مَا فِيهِ وَيَقُولُ : كُلُّهُ صَحِيحٌ ! وَإِلَى سُنَنِ التِّرْمِذِيِّ

وَيَقُولُ : كُلُّ مَا فِيهِ صَحِيحٌ ! لَا، لَابُدَّ أَنْ نُمَيِّزَ بَيْنَ صَحِيحِهِ وَضَعِيفِهِ، سُنَنُ ابْنِ مَاجَهْ كَذَلِكَ، سُنَنُ التِّرْمِذِيِّ فِيهَا الصَّحِيحُ وَالضَّعِيفُ، مَا يَأْتِي يَأْخُذُ كُلَّ مَا وَقَفَ عَلَيْهِ؛ يَقُولُ : قَالَ أَبُو دَاوُدَ وَيَمْشِي أَوْ قَالَ التِّرْمِذِيُّ، أَوِ النَّسَائِيُّ ! لَا، الْعَامِّيُّ نَعَمْ؛ يُعْذَرُ، أَمَّا طَالِبُ الْعِلْمِ الْمُتَمَكِّنُ الْقَادِرُ عَلَى التَّمْيِيزِ بَيْنَ صَحِيحِ السُّنَّةِ مِنْ ضَعِيفِهَا، هَذَا لَابُدَّ لَهُ مِنَ التَّمْيِيزِ، لِدِرَاسَتِهِ وَتَلْخِيصِهِ .

وَحَدِيثُ " الطَّائِفَةِ الْمَنْصُورَةِ " أَخَذَ مِنْهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ وَغَيْرُهُ أَنَّ الِاجْتِهَادَ مَوْجُودٌ فِي كُلِّ طَبَقَاتِ الْأُمَّةِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ؛ (لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ عَلَى الْحَقِّ لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَذَلِكَ)( ) هَذِهِ تَحْمِلُ فِي طَوَايَاهَا الْمُجْتَهِدِينَ، الَّذِينَ يُمَيِّزُونَ بَيْنَ الصَّحِيحِ وَالضَّعِيفِ وَالْحَقِّ وَالْبَاطِلِ.

وَهَذَا – يَا إِخْوَةُ – مِنَ النَّصِيحَةِ لِسُنَّةِ رَسُولِ اللهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ؛ مِنَ النَّصِيحَةِ لِرَسُولِ اللهِ، وَمِنَ النَّصِيحَةِ لِسُنَّتِهِ أَنْ نَجْتَهِدَ فِي مَعْرِفَةِ هَذِهِ السُّنَّةِ؛ خَاصِّهَا مِنْ عَامِّهَا مُطْلَقِهَا مِنْ مُقَيَّدِهَا، وَصَحِيحِهَا مِنْ ضَعِيفِهَا، وَنَاسِخِهَا مِنْ مَنْسُوخِهَا، نَجْتَهِدُ فِي كُلِّ ذَلِكَ وَهَذَا مِنَ النُّصْحِ، وَالْكَلَامُ عَلَى الرِّجَالِ

وَبَيَانُ أَحْوَالِهِمْ؛ يَعْنِي ثِقَاتِهِمْ مِنْ ضُعَفَائِهِمْ، مِنْ كَذَّابِيهِمْ، مِنَ الْوَاهِمِينَ، مِنَ الْمُدَلِّسِينَ إِلَى آخِرِهِ؛ هَذَا أَيْضًا مِنَ النَّصِيحَةِ لِلهِ وَلِرَسُولِهِ وَلِكِتَابِهِ وَلِسُنَّةِ نَبِيِّهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ .

فَأَمْرُ النَّصِيحَةِ، أَمْرٌ وَاسِعٌ وَعَظِيمٌ؛ لِأَنَّهَا تَجْمَعُ كُلَّ خَيْرٍ وَتَنْفِي كُلَّ شَرٍّ وَيَحِقُّ لِلنَّوَوِيِّ أَنْ يَقُولَ عِنْدَ شَرْحِهِ لِهَذَا الْحَدِيثِ (الدِّينُ النَّصِيحَةُ) : " هَذَا حَدِيثٌ عَظِيمُ الشَّأْنِ وَعَلَيْهِ مَدَارُ الْإِسْلَامِ كَمَا سَنَذْكُرُهُ مِنْ شَرْحِهِ، وَأَمَّا مَا قَالَهُ جَمَاعَاتٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ أَنَّهُ أَحَدُ أَرْبَاعِ الْإِسْلَامِ أَيْ أَحَدُ الْأَحَادِيثِ الْأَرْبَعَةِ الَّتِي تَجْمَعُ أُمُورَ الْإِسْلَامِ فَلَيْسَ كَمَا قَالُوهُ بَلِ الْمَدَارُ عَلَى هَذَا وَحْدَهُ "( ) . وَرَأَيْتُمْ هَذِهِ التَّفَاصِيلَ، أَوْ بَعْضَ مَا يَحْتَمِلُهُ الْحَدِيثُ مِنْ تَفَاصِيلَ .

" وَالنَّصِيحَةُ لِأَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ "

أَئِمَّةُ الْمُسْلِمِينَ هُمْ عُلَمَاؤُهُمْ وَحُكَّامُهُمُ الْمُلْتَزِمُ مِنْهُمْ بِكِتَابِ اللهِ وَبِسُنَّةِ رَسُولِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وَالَّذِي يَجُورُ مَا دَامَ فِي دَائِرَةِ الْإِيمَانِ لَمْ يَخْرُجْ، وَلَمْ نَرَ مِنْهُ الْكُفْرَ الْبَوَاحَ فَإِنَّهُ تَلْزَمُ طَاعَتُهُمْ وَمُسَاعَدَتُهُمْ عَلَى الْخَيْرِ، وَتَنْبِيهُهُمْ عَلَى أَخْطَائِهِمْ بِاللُّطْفِ وَبِالْحِكْمَةِ وَحُبِّ الْخَيْرِ لَهُمْ، وَحُبِّ النَّجَاحِ لَهُمْ، فِيمَا

يَخْدُمُونَ فِيهِ الْإِسْلَامَ وَالْمُسْلِمِينَ، نَتَعَاوَنُ مَعَهُمْ عَلَى الْمَعْرُوفِ، وَإِذَا عِنْدَهُمْ أَخْطَاءٌ أَوْ مُنْكَرَاتٌ نُنَاصِحُهُمْ بِاللُّطْفِ وَلَا نُؤَلِّبُ عَلَيْهِمْ كَمَا يَفْعَلُ الْخَوَارِجُ وَأَذْنَابُهُمْ ! لِأَنَّ التَّأْلِيبَ عَلَيْهِمْ وَالْخُرُوجَ عَلَيْهِمْ يُؤَدِّي إِلَى دَمَارِ الْأُمَّةِ وَضَيَاعِ دِينِهَا وَدُنْيَاهَا وَمَا ذَلَّتِ الْأُمَّةُ إِلَّا بِالتَّمَرُّدِ عَلَى الْأَئِمَّةِ وَالْخُرُوجِ الَّذِي أَدَّى إِلَى تَفْرِيقِ الْمُسْلِمِينَ وَتَمْزِيقِهِمْ وَذُلِّهِمْ وَضَيَاعِهِمْ .

الْآنَ عِشْرُونَ دَوْلَةً ! لَوْ كَانَتِ الْأُمَّةُ كُلُّهَا فِي دَوْلَةٍ وَاحِدَةٍ، أَكَانَ حَالُهَا هَكَذَا ؟! نَشَأَ هَذَا التَّفَرُّقُ عَنِ التَّمَرُّدِ عَلَى الْأَئِمَّةِ؛ تَمَرَّدُوا عَلَى الْخُلَفَاءِ الْأُمَوِيِّينَ فَحَصَلَ فَسَادٌ كَبِيرٌ وَأُرِيقَتْ دِمَاءٌ لَا أَوَّلَ لَهَا وَلَا آخِرَ، تَمَرَّدُوا عَلَى الْخُلَفَاءِ الْعَبَّاسِيِّينَ فَمَزَّقُوهَا إِلَى دُوَيْلَاتٍ، ثُمَّ الْآنَ يَتَمَرَّدُونَ عَلَى الدُّوَيْلَاتِ هَذِهِ فَتَزْدَادُ الْأُمَّةُ بَلَاءً !!

فَنَعْتَرِفُ بِكُلِّ دَوْلَةٍ، وَنَرْجُو اللهَ أَنْ يَجْمَعَ كَلِمَتَهُمْ عَلَى إِمَامٍ وَاحِدٍ جَمِيعًا كَمَا كَانَتْ فِي عَهْدِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ؛ فَإِنَّهُ لَا عِزَّةَ لِلْأُمَّةِ إِلَّا بِهَذَا الِاجْتِمَاعِ : ﴿وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾(الْأَنْفَال : ٤٦)، وَقَدْ تَنَازَعَتِ الْأُمَّةُ وَنَازَعُوا الْأَئِمَّةَ فَفَشِلُوا، وَحَصَلَ هَذَا الْفَشَلُ الْمُهْلِكُ : ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا

شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾ (الْأَنْعَام : ١٥٩)، فَهَذَا التَّفَرُّقُ مَذْمُومٌ، لَكِنْ حَيْثُ حَلَّ الْبَلَاءُ وَالْبَلَاءُ وَاقِعٌ، فَكُلُّ بَلَدٍ يَلْزَمُ إِمَامَهُ، وَيَنْصَحُ لَهُ، وَلَا يُؤَلِّبُ عَلَيْهِ وَلَا يَخْرُجُ عَلَيْهِ؛ لِأَنَّهُ بَعْدَ هَذِهِ التَّجْزِئَةِ ..نَزِيدُ تَجْزِئَاتٍ، وَبَعْدَ هَذَا الْبَلَاءِ نَزِيدُ بَلَاءً عَلَى الْأُمَّةِ، وَمَا جَاءَ الدَّمَارُ وَالْهَلَاكُ إِلَّا بِالْخُرُوجِ عَلَى الْأَئِمَّةِ؛ وَتَرَى فِي الْأَحْزَابِ الْآنَ الَّتِي تُسَمِّي نَفْسَهَا إِسْلَامِيَّةً التَّهْيِيجَ وَالتَّثْوِيرَ وَالْخُرُوجَ وَالدَّمَارَ هَذَا الَّذِي تَرَوْنَهُ !! كُلُّ هَذَا لَا يُقِرُّهُ الْإِسْلَامُ وَضِدُّ النَّصِيحَةِ لِلهِ وَلِكِتَابِهِ وَلِرَسُولِهِ وَلِأَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ وَعَامَّتِهِمْ .

فَيُتَعَاوَنُ مَعَهُمْ عَلَى الْمَعْرُوفِ، وَلَا يُطَاعُونَ فِي مَعْصِيَةِ اللهِ، وَيُنْصَحُونَ بِالرِّفْقِ وَاللُّطْفِ وَالْأَدَبِ وَاللِّينِ، وَالْعَاقِلُ يُدْرِكُ هَذَا، الْآنَ عَامِّيٌّ، جَاهِلٌ، فَقِيرٌ، ضَعِيفٌ، إِذَا مَا تَتَرَفَّقُ بِهِ فِي النَّصِيحَةِ لَا يَقْبَلُ مِنْكَ، كَيْفَ بِحَاكِمٍ لَهُ دَوْلَةٌ وَالطَّيَرَانُ وَالسِّلَاحُ وَكَذَا ؟! تَتَطَاوَلُ عَلَيْهِ وَتُهِينُهُ وَتُرِيدُ أَنْ تَضْرِبَ عَلَيْهِ، لَا تُرِيدُهُ، الَّذِي يُرِيدُ الْخَيْرَ لَا يَفْعَلُ هَذَا، الَّذِي يُرِيدُ أَنْ يَنْصَحَ لِلهِ وَلِكِتَابِهِ وَلِرَسُولِهِ لَا يَفْعَلُ مِثْلَ هَذَا الْأُسْلُوبِ، وَالتَّهْيِيجِ وَالْإِثَارَاتِ،

وَالتَّشْهِيرِ؛ هَذَا كُلُّهُ مِنَ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ، وَضِدُّ النَّصِيحَةِ الَّتِي فَرَضَهَا اللهُ عَلَيْنَا.

" وَالنَّصِيحَةُ لِعَامَّةِ الْمُسْلِمِينَ "

بِالرِّفْقِ بِهِمْ، وَرَحْمَتِهِمْ وَأَنْ تَكْرَهَ لَهُمْ مَا تَكْرَهُ لِنَفْسِكَ، وَتُحِبَّ لَهُمْ مَا تُحِبُّهُ لِنَفْسِكَ، وَتَأْمُرَهُمْ بِالْمَعْرُوفِ، وَتَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَتُعَلِّمَ الْجَاهِلَ بِالْحِكْمَةِ وَاللُّطْفِ : ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ۖ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ (النَّحْل : ١٢٥)، تَفْرَحُ بِنَصْرِهِمْ إِذَا انْتَصَرُوا، وَبِعِزِّهِمْ إِذَا أَعَزَّهُمُ اللهُ، وَتَتَأَلَّمُ لِمَا يَنْزِلُ بِهِمْ مِنَ الذُّلِّ وَالْهَوَانِ، وَالْمَصَائِبِ وَالْكَوَارِثِ، هَذَا مِنَ النَّصِيحَةِ لِلْمُسْلِمِينَ .

نَسْأَلُ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنْ يَجْعَلَنَا وَإِيَّاكُمْ مِمَّنْ يَفْقَهُ دِينَهُ وَيَعْمَلُ بِهَذِهِ النَّصِيحَةِ الْمَفْرُوضَةِ " لِلهِ وَلِكِتَابِهِ وَلِرَسُولِهِ وَلِأَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ وَعَامَّتِهِمْ " إِنَّ رَبَّنَا لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ، وَصَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ .

اعْتَنَى بِهَذِهِ الْمَادَّةِ وَعَرَضَهَا عَلَى الشَّيْخِ رَبِيعٍ – حَفِظَهُ اللهُ – أَخُوكُمْ فَوَّازٌ الْجَزَائِرِيُّ

مَكَّةُ فِي : ١٦/٣/١٤٢٨هـ